علماء العرب

٨

الفارابي

أبو الفلسفة الإسلامية

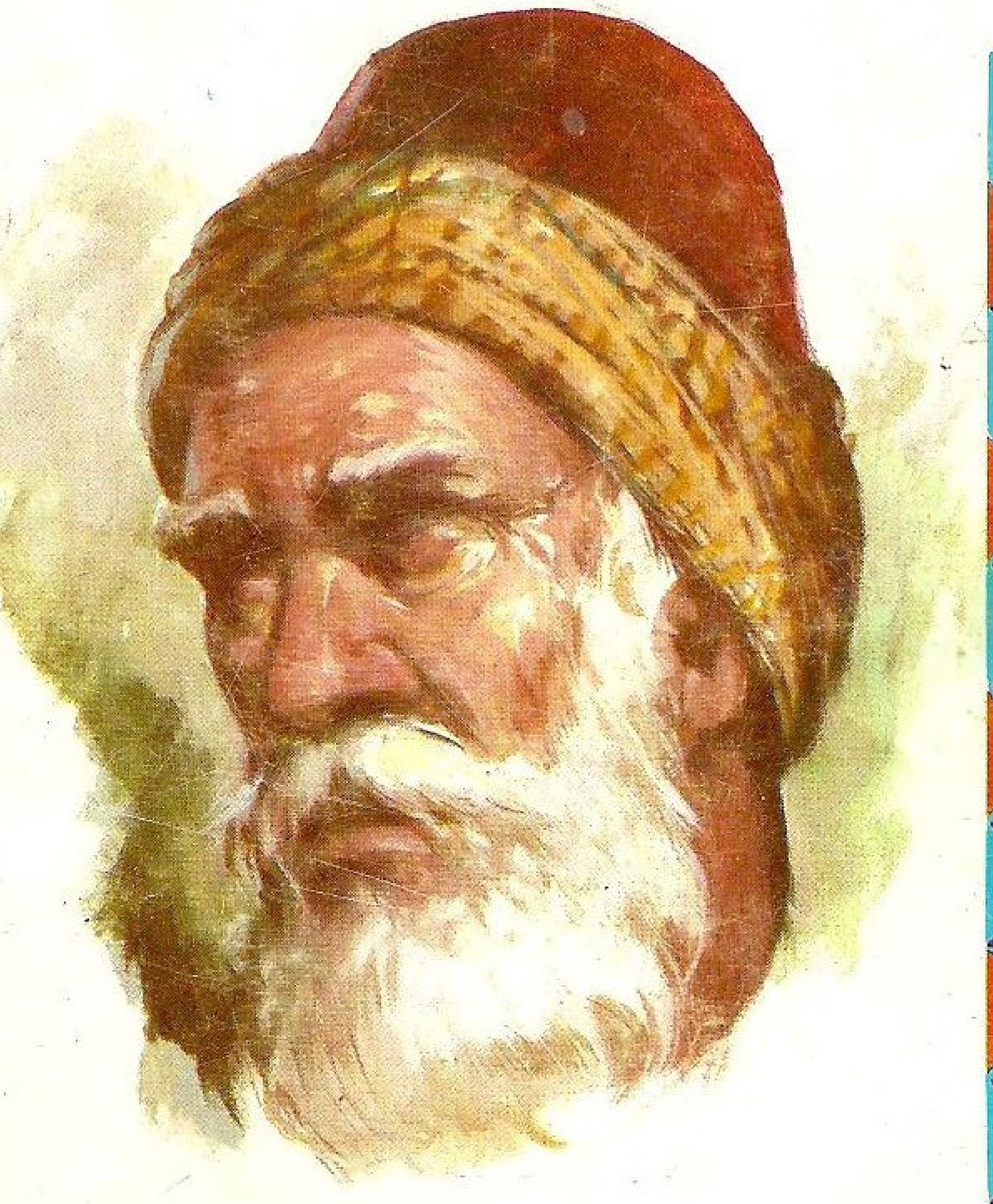

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

مركز الأهرام للترجمة والنشر

علماء
العرب

الفارابي

أبو الفلسفة الإسلامية

عبد الهادي الحبشي

سليمان فياض

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م

الطبعة الثانية

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

صبى فى مزرعة

فى قرية « وسِيج» بولايةِ « فاراب » ، فيما وراءَ نهرىْ « سيحون » و« جيحون » ، (بجمهورية تركستان الآن) .
وُلد « محمدُ بنُ محمدٍ بُنِ طَرْخَان » .

كان أبُوه قائداً صغيراً ، من قُوّادِ الجيوشِ السامانية ، وكان تركِىّ الموطن ، فارِسىّ الأصْل ، عربىّ الثقافة ،

يتحدّث بثلاثِ لغات ، هى الفارسيةُ لغةُ أجدادِه ، والتّركيةُ لغةُ موْطنهِ فى آسيا الوسطى ، والعربيةُ لغةُ ثقافتِه ودينِه ، منذ أنْ دخلَ أبُوه « طَرْخان » فى دينِ الإسلام ، ونزَحَ بأهلِه إلى إقليمِ « فارَاب » .

وكانَ إقليمُ « فارَاب » خصيبَ الأراضى ، عامراً بالبساتينِ والمزارع ، تُغطِّى أراضِيه أشجارُ الفواكهِ والبقولِ والخضروات . وكان السّكانُ من الأتراك ، ومن المستوْطنينَ الفرسِ والعرب ، الذين حَملَتهم الجيُوش الإسلامية أثناءَ فتحها لهذا الإقليمِ ، أكثرَ من مرة ، والدعاةِ إلى دينِ الإسلام ، والتجارِ الوافدين من شرقِ العالمِ الإسلامىّ وغربِهِ ، أهلَ منعةٍ وبأس ، يحملُون السلاحَ أبداً ، فيما هُمْ يزرعُون ويُمارسُون الحرفَ والتِّجارات ، وينضمُّون إلى الجيُوش المحارِبة ، ويحرِصُون فى نفسِ الوقت ، على دراسِتِهم لدينهم ، وللغة هذا الدين ، وتعلِيم أولادِهم علومَ الدُّنيا ، مع عُلومِ الدين .

فى هذَا الجوّ ، وفى تلكَ البِلاد ، حديثةِ العهدِ بالإسلام ، نشَأ « محمدُ بنُ محمدٍ بنِ طرخان » فى مزْرَعةٍ يملكُها أبُوه عن جدّه ، يُشرِفُ مع أبنائه ، على زراعتِها بالفواكهِ والحبوبِ والخُضروات ، ويلبِّى داعِىَ الجهادِ ،

كقائدٍ بينَ قُوّادِ الجيُوشِ المسْلمة ، كلما دعاهُ إلى ذلك داعٍ .

فى مسجدِ قريـة « وسِيج » ، ومسـاجدِ مـدينة « فاراب » ، حفظ الابنُ « محمد » ، القرآن الكريم ، ودرس الفقْهَ ، والحديثَ ، والتفسيرِ ، وأتقَنَ اللغتينِ التركيّةِ والفارسِية ، وعرَف كيفَ يقرأُ العربيّةَ ، وكيفَ يكتبُها ، لكنّه ، لم يتبحّرْ فى نحوِها وصرفِها ، ويتقنْها إتقانَ بنِيها من العلماء .

المتــوحّـد

كان الابنُ « محمد » ذكىّ النفسِ ، هادىءَ الطبعِ ، ساكناً ، لا تعنِيه أمورُ الدّنيا والجسَد ، فرُوحه يحلّق حيثُ يحلِّق عقلُه ، وعقلُه يتسامَى إلى حيثِ يسمُو روحه . فلم يعبأْ فى طفولتِه ، وصباهِ وشبابِه بمسْكن ، ولا بمشْرَب ، ولا بملبَس . يُؤثِرُ البسِيطَ من ثيابِ مواطنِيه من التّرك ، والمفيدَ من أبْسِط أنواعِ الغذاء ، ويؤثِرُ الوحْدَةَ ، والتأملَ والتفكير ، فى أمورِ الدنيا والدين ، وحياةِ الناسِ من المحكومِين والحكام ، من المزارِعين والصناعِ والمحارِبينَ

والقوادِ والسّاسة ، ومعارِفِ السابقين والمعاصرين ، تَفُوه بها ألسِنةُ الناس ، وتتحدثُ بها صفحاتُ الكتب .

وكانت مجالسُه المنفرِدة ، مع نفسِه ، وفكرِه ، وتأملاتِه ، وخواطِره ، عند شطآن المياهِ الجارية ، والحدائقِ الغَنَّاء ، والزهورِ الملوَنة ، فى ظلالِ أشجارٍ خضراءَ ، وارفةِ الظلال .

وكثيراً ما كان « محمد » الابن ، يخرجُ من عُزلتِه ، ليمارسَ مع إخوتِه الزراعَة فى مزرعةِ أبيه ، يحرثُ ، ويسْقِى ، ويهذِّبُ الأغصانَ ، ويحررُ الأشجارَ من فروعِها وأوراقِها اليابِسة ، ويُخلّص التُّربةَ من الأعشابِ الضارّة . وفى الليلِ كانَ يسهَرُ فى خُصٍّ (كوخ) من الأغصان ، على ضَوْءِ قِنديل ، يقرأ ويكتبُ ، فى الليالِى الحارّةِ والبارِدة ، ويحرسُ بُستان الفواكهِ ، فى مواسِمِ الإثمار . ونادراً ما كانَ يأوِى إلى بيْتِ أهلِه وذوِيه ، إلا فى نهاراتِ وليالِى المواسمِ والأعيادِ القومِية والدينية . عندئذٍ كان يؤثِرُ أن يكونَ مع الأهْلِ وبْينَ الناس .

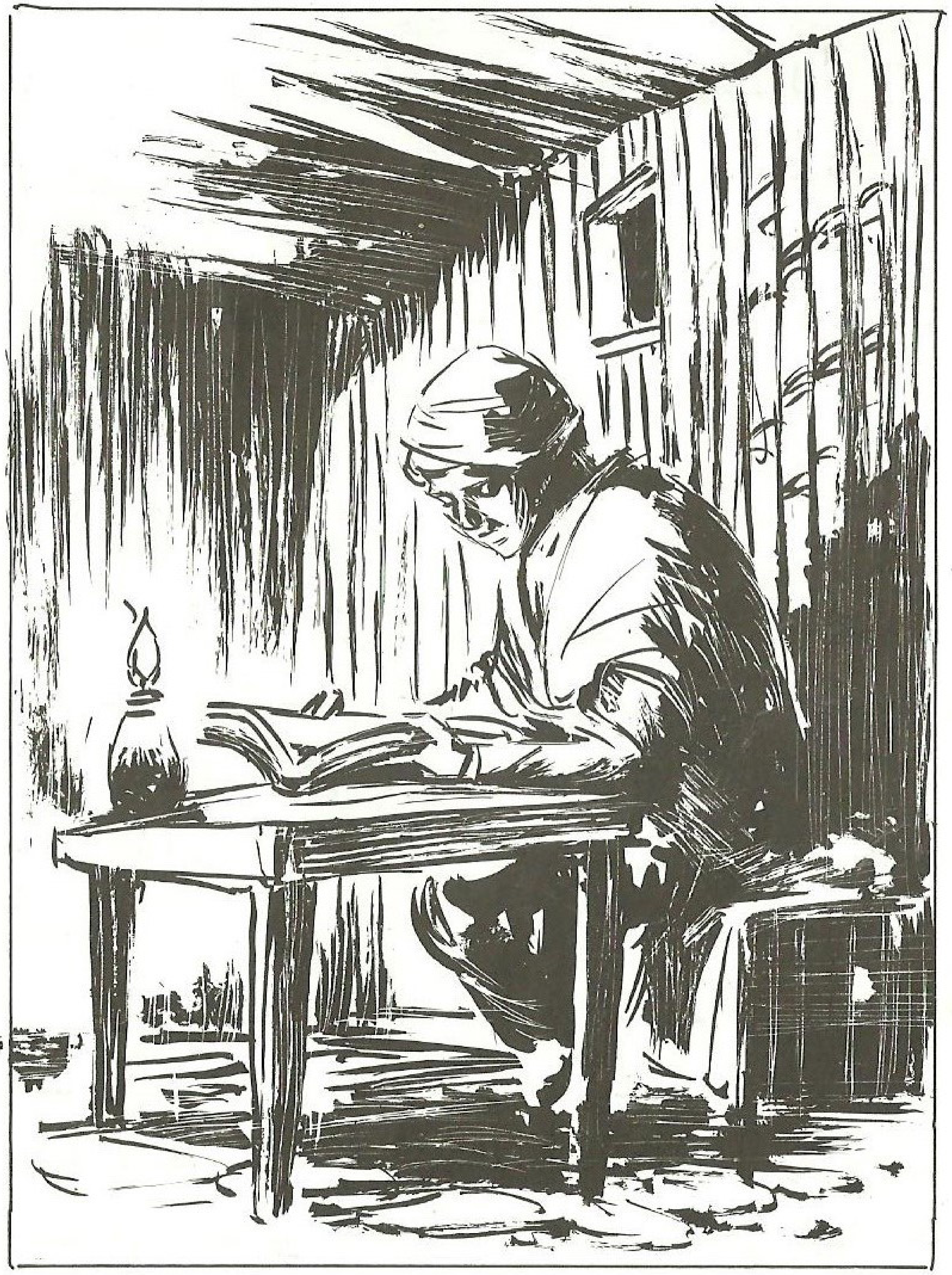

لا تشفق علىّ

جلس إليه أبوه « محمد » يوما ، وقالَ له :

ـ كبِرتَ يا ولدى ، وقاربْت الثلاثين ، وأنتَ تؤثِر حياةَ السّلام ، على حياةِ الحرب ، وحياةَ الخَلاء على حياةِ الناس ، ولستُ أدعُوك لتكونَ جنديا ، أو فارساً ، وإنما أدعُوك للخروجِ من الوَحدَةِ الدائمة التى تحياها ، وتتزوج .

فقال له ولدُه « محمد » :

ـ يا أبت : نذرتُ نفسِى للعِلم ، وحياةِ العلماء . والزواجُ ، والإنجابُ مَشْغَلةٌ لطالبِ عِلمٍ مِثلى ، عن حياةِ العلم والعلماء . وإنى لأوثِرُ أن تكونَ حالى على ما هِيَ عليه الآن ، أقرأ فى كتبِ الأوّلين والحاضرين ، وفى كتابِ الطبيعةِ المفتوح .

ولم يخف الأب إعجابَه بولدِه ، فقد صارَ الآن رجلاً يعيشُ حياتَه على مِنْوالِه وطريقَتِه ، يُمارِسُ ، بطلبِه العلم ، بطولةً لا تقِلُّ شأناً عن بُطولةِ المجاهدين ، والزارِعين ، والصُّناع ، لتعْميرِ أرضِ الله ، ونشْرِ الخير فيها لكافةِ الأحياء . ولم يزدْ أبوه على أن قالَ له :

ـ كما تشاءُ يا بنى . كما تشاء . يسَّرك اللهُ للعلم . ويسَّر العِلمَ لك .

الـوديعــة

فى « فاراب » ، كان يعيشُ عالمٌ مجهولٌ من العلماء ، وكانت لديهِ كتبٌ كثيرة ، فى المنطِق ، والفلسفةِ ، والموسيقى ، والرياضِيات ، بعضُها نسخَها على الورقِ بيده ، وبعضُها اشترَاها منسُوخة من الورّاقين (بائِعى الكتب) خلالَ أسفارِه شرقًا وغربا . وأرادَ هذا العالِمُ السفرَ من جديد ، وخشِىَ على كتُبه فى مكتبتِه من التبدُّد والضَّياع ، فحملَها إلى العالِمِ الشابِّ « محمد » ، وقال له :

ـ يا بُنى ، أنتَ خيْرُ من يعرِفُ قيمةَ هذهِ الكتب فى « فاراب » ، وبعضُها فى علومٍ لا عِلمَ لك بها . وإنّى على وَشْك السّفر لأمورٍ من أمورِ دنياى ، وقد فتّشْتُ حولى عن رجلٍ أسْتودِعُه هذه الكتبَ أمانةً عِنده ، إلى أن أعودَ من سفرِى . فلم أجدْ رجلًا أمينا ، محبًّا للعلم ، وللكتبِ سِوَاك ، ولكَ أن تنتفِعَ بها مُدةَ سفرِى ، فإن عُدْتُ استرجعتُها منك ، وإن لم أعُدْ ، فِهى لكَ ، بعْدَ عشرِ سنوات ،

فلا أدرِى أيْن ستسْتقرُّ بى الدار ، ويطيبُ لى المُقَام ، ولا مَتَى يوافِينى الأجل .

وفرِح « محمد » بكتُبِ العالمِ المسَافر . وعكفَ على الكتبِ بفرح يقرأُ فيها ويتعلَّم ، يُعَلم نفسَه بنفسِه . وكانت كلّها كتباً فى الفلسفةِ والمنطِق ، والرياضِيّات ، والموسِيقى ، بعضُها مؤلّفٌ بأقلام علماءٍ مُسلمين من شَتّى الجنسِيّات ، وبعضُها مترجَمٌ عن اليونانِية خاصَّة . وكانت بينَها كتبٌ لأرسْطو وأفلاطُون فى الفلسْفة والمنطِق . وكادَت نفْسُ العالِمِ الصغيرِ « محمد » تطيرُ من الفَرَح ، مثل شعاعٍ يجُوب آفاقَ الكون .

العـالِم الصغير

مر عامٌ إثرَ عام ، حتَى مضتْ السّنوات العشر ، ولم يعُدْ عالِمُ « فاراب » صاحبُ الكتب من غَيبته . وكان « محمد » قد قرأ كُتُبه مِرارا وتَكرارا ، حتى حفِظها .

قرأ العالم الصغير « محمد » كتاب « النفس » لأرسطو . وكتب عليه بخطه : « قرأتُ هذا الكتابَ مائة مرة » . وقرأ كتابَ « السّماع الطبِيعى » لأرسطو ، وكتبَ عليه : « قرأتُ هذا الكتاب أربعينَ مرة » . وكان يبذُل جهْدا

مُجهدا لتحصيلِ العلم ، والغوصِ فى أعماقِ معارفِه فى صبرٍ وإخلاص ، ولذلك تعدّدت قراءتُه فى الكتابِ الواحد ، ففِى كل مرّة يكتشِف جديداً من المعارِف والحقائق .

واستوعَبَ العالِمُ الصغير ، خلالَ هذه السنواتِ العشْر ، ما قدمتْه له هذه الكتبُ التى بين يديْه ، فأصبحَ قادراً على نقدِها ، والإضافةِ إليها ، وتصحيح ما يعنّ له تصحيحُه من الأفكار ،وشرْح ما يراهُ غامضاً من الحقائِق والمقولات العقليّةِ والعِلمية ، ليفيدَ به من يأتِى بعدَه من العلماء ، الصغارِ منهم والكبار .

وبينَ كافّةِ الناسِ ، العاديِّينَ منهم ، والعُلماء ، اشْتهِرَ العالم الصغير ، « محمد » ، فى إقليم « فاراب » ، بلقبِ « الفَارابى » : « محمد بن محمد بن طرخان الفارابى » ، زهْواً به ، وإعلاءً لشأنه ، فوفد عليه ، للتلمذة على يديه ، شبابٌ يطلبُ العلم ، وعلماءُ لهم فى العِلم شأوٌ وباع ، ولم يعُد الفارَابى وحيداً فى نَهارات أيامِه ، فلم يكن يجدُ سبيلاً إلى الوحْدة ، والخلوّ إلى نفسِه وكتبِه وأفكارِه إلا فى الليل على ضوءِ قنديل أومشكاة .

مسافر إلى الأبد

وتاقَت نفسُ « أبى نصرٍ الفارابى » للتّرحَال والأسفار ، طلباً للمعرفة ، ورُؤيةِ الدنيا ، ولقاءِ العلماء ، والحصُولِ على الكتب يشتريها منسُوخة ، أو يستعيرُها ، أو يؤجّرها ، لينسَخَها بيدِه وقلمه . وزادُه لحمٌ مقدّد ، وجُبْن مجفّف ، وتمرٌ ، وزيتُون ، وبِضْعة دراهمَ ودنانير ، وأكبرُ حَمْلِه معهُ ، على بغله ، أو جَمَله ، هو كتُبُه التى لا تفارقُه ، حيثما رحَلَ أو نَزَل .

جاب « أبو نصر الفارابى » أرجاءَ آسيا الوسطى (جنوب الاتحاد السوفييتى الآن) ، وجابَ بلادَ فارس (إيران) وخراسَان (أفغانستان) . وقد ترَك وراءَه لإخوتِه وأهله وذويه ما ورِثَه من ضيْعة أبيه . فهو من رُوحه ، وبعِلمه ، فى غِنًى وثروَة ، دُونَها كلُّ ثروةٍ وجاه . وأينما نَزَل فى بلد ، تركَ وراءَه نسخةً من كُتُبِه لعالم ، أو جانباً من معارفِه لطالبِ علم ، كان قدْ سمعَ به ، واشتاقَ إلى لُقْياه .

فى مدينة السندباد

وكان « أبو نصر الفارابى » قد بلغَ من العمرِ خمسِين

سنة ، حينَ دخلَ بغداد عامَ ثلاثمائة وعشرةٍ هجرية ، تُسعمائةٍ واثنينِ وعشرينَ ميلادية بعد طُولِ ترْحَال .

ووجَدَ الفارابى أهلَ بغداد مشْغُولين بالحديث منذُ عام عن وفاةِ الصوفىّ الشاعر المتفلسِف « الحسين بن منصور الحلاّج » ، شهيدا ، بعد أنْ أمرَ الخليفةُ المقتدر بضرْبه ألف سوط ، مُتهما له بالزندقة فى شِعرهِ وفلسفتِه ، وكان « حامدُ ابنُ العباس » وزيرُ المقتدر يكرهُه ، فجعلَ من امرأتِه عيناً عليه ، واستشهدَ بها ضدّ زوجِها ، وقد أغراهَا بالمال ، فى مجلِسٍ ضمّ عدداً من القُضَاة ، وأُحرقت جثتُه ، وأُلقِىَ برمادِها فى نهرِ دِجْلة .

وفى اليومِ الأول ، لدخولِ « أبِى نصر الفارابى » ، مدينةِ بغداد ، قُدر لهُ أن يشهَد ويرَى نِزَاعاً بين أهْلِ السّنة فى الفقهِ الإِسْلامى ، فقد كانَ أتباعُ مذهبِ الإمامِ « أحمدِ ابنِ حنبل » ثائِرين ، فقد مات الإمام المفسّر « محمدُ ابن جريرِ الطبرىّ » أول وأكبر مفسّر لكتابِ الله ، ورغب أهلُه وتلاميذُه فى دفنه ، فأبى عليهم الحنابلة دفنَه فى مقابرِ المسلمين ، لأنّ الطبرىّ المفسّر كتبَ يوماً كتاباً ، تحدث فيه عن « اختلاف الفقهاء » ، ولم يذكُرْ فيه اسمَ إمامِهم « أحمدُ ابنُ حنبل » . كان الموقفُ أمامَه مأساةً ومَلهاة ، تُبكِى

وتُضحك فى وقتٍ واحد ، فأدرَكَ الفارابى أىّ حال صارتْ إليهِ بغداد .

جند مرتزقة

كانت بغدادُ ، مقرًّا للخلافة العباسية ما تَزَال ، ورأى الفارابى مدينةً عجيبة ، هى خليطٌ من العرَب والفرسِ والمغاربةِ والأتراك . ورأى الأتراك ، من مواطِنيه فى وسطِ آسيا ، يسيطرُون على كلِّ شىءٍ فى الدولة ، بسيطرتِهم على الجيش ، منذُ خمسٍ وثمانين سنة . وقد بلغَ الخلفاءُ العباسيّون من الضعف حدًّا جعلهم يحاولُون مقاومَةَ شُرُورِ الأتراك ، بالاستعانةِ بجنودٍ من المغاربة ، والأكرادِ ، والدّيْلم ، فزادُوا بدورِهم تدخلاً فى أمورِ الحكم ، وعبثاً وفساداً بينَ الناس .

وتوجّه الفارابى إلى المسجد ، وصلّى الظهرَ مع الجماعة ، وجلس يدعُو مستعيناً بالله على فهمِ ما يحدُث حولَه . وخرَج الفارابِى من المسجد ، باحثاً عن بيتٍ يأويه ، على أنْ يكون نائِياً عن بغداد ، وقرِيبا منها ، يطلُّ على نهرِ دجلة . . ووجدَ ضالته ، فاستأجرَ البيتَ إلى حين ، وآوى إليه بغلتَه ، وأنزلَ به كُتبه ، وغادرَهُ عائدا إلى بغداد ، يتجوّل

فى أنحائها ، ويرَى من معالِمها وأحيائِها ما لم تره عيناه .

وراع الفارابى ما يشاهِدُه من مظاهرِ العُمران فى أرجاءِ بغداد : دورٌ وقصورٌ فخمةٌ واسعةُ الأرجاء ، بها حدائقُ غنّاء ، وتنطقُ جُدرانها بفنونِ الهندسةِ الشرقية . وكانت الدور والقصورُ مثل دُور وقُصورِ الفرس التى رآهَا فى طريقهِ إلى بغداد ، مبنية بالآجُر (الطوب المحرَّق) ، ومغطاة بالكلّس (الملاط) ، ولها قباب مرفُوعة هنا وهناك .

خوف السائل والمجيب

وجلسَ « الفارابى » فى بستانٍ من البساتينِ العامةِ فى بغداد ، تحتَ شجرة ظليلة ، بجانبِ نافورةٍ من نوافيرِ المياه . ولاحظَ أن أكثرَ الناس فى وقتِ القيلولة قد آوَوْا إلى بيوتِهم . وكان اليومُ من أيامِ الخريف . واقتربَ منه بستانِىٌّ ، وحياه ، وجلَس ، وقال له دُونَ استِئذان :

ـ أرىَ أنكَ غريب . تُدهشُك بغداد . انظرْ . لو قُدِّر لكَ أن تدخُلَ قصراً من هذهِ القصورِ فى الكَرْخ ، أو على الضِّفّة الأُخرى لدِجلة ، فى الرصَافة ، فسوفَ ترى هذِه القبابَ مرفوعةً على عُمُدٍ دقيقة ، فتظهرُ القِباب لعينيْك كأنها

معلقةٌ فى الفضاء . ولسوفَ ترَى ، فى أرجاء هذِه القُصور ، أرْوقةً يجتمعُ فيها غِلمانُ القصرِ منَ الخُدام ، وبقدرِ عددِ هؤلاءِ الغِلمان فى الرّواق ، يسمى الرُّواق . فرُواق اسمُه : « الأربعِينى » ، ورواقٌ اسمه « الستّينى » ، أو « السبعينى » .

وجاملَ « الفارابى » البستانى ، فأبدَى له دهشَته مما يَسْمع ، فضِحك البستانى وقال :

ـ فكيْف بِكَ لو دخَلْت قصراً من هذه القصور ، ورأيت ما فيهَا من فخامة وترَفٍ وبذَخ ، وشاهدتَ مجالِسَ الغناء والطرب ، وبها الشعراءُ والمغنون ، والأدباءُ والموسيقيّون ، والجوارِى المغنيات ، والجوارِى السميرات ، وأهلُ الفُكاهة والظَّرْف !!

وشعَرَ الفارابى بالضّيق ، فأفلَت منه القَوْل :

ـ أإلى هذَا الحد ينغمِسُ أهلُ بغدادَ فى اللهو؟ متى إذنْ يَعْنَون بشِئون الدّولة ، ورقىّ الحياة والناس ؟!

ولعلّ الفارابى خشِى مَغَبّةَ سُؤالِه ، ولعلّ البستانى خشِىَ عاقبةَ الجواب ، لو أجاب ، فقد نهِض كلاهما ، وانصرَف ، مبتعداً عن الآخر . وكانَ بعض المارة ، من الطبقةِ الراقية ، قد خرجُوا للنزهة ، أو للمسجد ، مغادِرين قصورهَم ، كانوا يرتَدُون سراويلَ فَضْفاضَة ، وقِمصانًا ،

ودرّاعات (مثل الجاكت الطويل) ، وسُتْرَات ، وقفاطِينَ ، وأقبيةً ، وقُلنْسوات .

تلميـذ فى الخمسين

أدّى الفارابى صلاةَ العصرِ فى المسجدِ الكبير ، وواصلَ سيرَه فى أحياءِ الشعبِ في بغداد ، بعيداً عن قصورِ الأغنياء فى الكرْخ والرصَافة ، فرأى متاجرَ للسّلع ، ومحالّ للصناعاتِ اليدوية ، صِناعات : السجاد ، والآنيةِ ، والنحاسِ ، والنسيجِ ، والمعادِن . ولفتَ نظرَهُ فى هذه الأحياء ، أن الناسَ يكتفُون من الثيابِ بإزار ، وقميصٍ ، ودرّاعة ، وسُترة طويلة ، ومِنْطقةٍ (حزام) .

كانت الشمسُ تغرُب فى الأفق ، وكانَ الفارابى قد جاءَ إلى بغداد ، راجياً أن يَلْقى إمامَ علماءِ المنطقِ فى زمانِه « أبو بشر متّى بنُ يُونس » ، وكان عُلماءُ « شيراز » قد قالُوا له إن بوسْعِه لقاءَه ، إثرَ صلاةِ المغرب فى المسجدِ الكبير ببغداد . فتوجّه الفارابى مسرعاً إلى المسجد ليصلى صلاة المغرب ، ويلقَى « أَبَا بِشر » .

وَدَلّ الناسُ أَبَا نصر على أَبِى بشر ، فاقترَب منه ، وحيّاه ، وجلسَ إليه ، وقدّم له نفسَه ، وحدّثه عن غايتِه من لقائِه .

وتأمّل أبُو بشر مَلِيًّا فى أبِى نصر ، بدا لَه طويل القامة ، عريضَ المِنْكبين قوىّ البنية ، وقد ابيَضّ شعرُ فوديْه على جانِبَىْ أذنيه ، ورأى يديْه خشِنتين ، كمن يخدُم نفسَه بنفسِه ، أو يمارسُ أعمالَ الفلاحة أو البسْتنة . وأعطاه وجهُ « أبى نصر » شعوراً بالأمْنِ والهدوء ، وصَفاءِ النفس . ونظرَ « أبو بشر » فى عينىِ الغريب ، فرآهُما تَشِعانِ ذكاءً ووداعةً فى آن واحد .

قال لهُ أبُو بشر مداعباً :

ـ يا أبَا نصر . أبعْدَ كلِّ هذا العمر ، تأتِى لتدرُسَ علوم المنطق ، والفلسفة والرياضيات ؟ !

فقال له الفارابى ، وهو يبتسم :

ـ يا سيدى أبا بشر . النابغةُ الذبيانى نبغَ فى الشعرِ بعدَ الأربعين . والعِلمُ يُطلبُ من المهد إلى اللحد . وإن لِى فى العِلم لشأنا . وقد تركت ورائِى شروحاً فى المنطِق والفلسفة . ثم جئتُ إليك ، ففوقَ كلِّ ذِى عِلم عليم .

أتقن لغة العرب

ارتاحتْ نفْس أبِى بشر للفارابى . وسألَه عن مَدَى إتقانِه لِلُّغةِ العربية ، فقال له أبو نصر :

ـ أعرفُ منها ما يكفِى لأقرأَ بها وأكتب ، لكننى لا أحسنُ صرْفها ونحوَها ، مثل إتقانِى لنحوِ الفارسيةِ والتركية ، وتصريف أبْنيتِهما .

فقال له أبو بشر :

ـ لابُد لك معِى من إتقانِ نحوِ العربية وصرفِها ، فبها ستقرأُ معى ، وتكتب لنفسِك وللناس . ولهذا سأصحبُك غداً إلى من يعلّمك العربيةَ نحواً وصرفا ، وإنى لأَرَى أنكَ ستكونُ فيهما من النابِهين .

حارس البساتين

وصحِبَ أبو بشر ضيفَه الفارابىّ معَه ، إثْر صلاةِ العشاء ، إلى بيتِه ، وتناولاً عشاءَهما معا ، ثم سأله :

ـ أمعَك مالُ تعيشُ منه ، أم نطلبُ لك راتباً من بيتِ الحكمة ، أو من بيتِ المال ، أو منِ أحدِ الأمراء ، ممن يرعَوْن العلمَ والعلماء ؟

فقال له الفارابى :

ـ لا تحمِلِ همّ عيشى يا سيدى . فمعِى بعضُ الدنانير ، وأنا أوثِرُ العملَ على أخذِ أىِّ عطاءٍ أو هبة . وقد

اخترتُ لنفسى ، منذُ سنينَ طويلة ، عملاً لا يعوقُنى عنِ التفكير ، والدرْس ، وطلبِ العلم ، فى ليلٍ أو نهار ، وهُوَ : حراسةُ البساتين .

فصاح أبو بشر بدهشة :

ـ أتعمل ناطُورا ، حارساً لبُستان ؟ كم تظنّ أن صاحِبَ البستان سيعطِيك أجراً لحراستك ؟

فقال له الفارابى :

ـ أربعةُ دراهم ، هى حسبِى لقوتِ شهرى ، وعلفِ بغلتى ، ويبقَى منها ما أشترِى به أوراقاً وأحباراً ، لأنسخ ما أحتاجُه من كتب ، فنسْخُ الكتابِ بيدى ، يَزيدُنى فهماً له ، ولأكتبَ ما يخطُر لى من أفكار . والبستانُ يا سيدِى لا يحتاجُ إلى حِراسةٍ إلا فى الليل ، فأظلُّ ليلىَ ساهرا على ضوْء قنديل ، لا تغْفُو لى عين ، إلى أن تُشرِق الشمس ، فأغفُوَ ساعاتٍ ثلاث ، ثم أسْعى لأدبّر طعامِى ، ولألْقى العلماء .

وجدَ أبو بشر نفسَه أمامَ طرازٍ جديدٍ وفريدٍ من العلماء ، آثر حياة العُزُوبة على حياة الزواجِ والولد ، وأفْرغَ قلبَه وعقلَه للمعرفة ، وحررَ روحَه من شَهواتِ المالِ والطّعام ، واختارَ لنفسِه عملاً لم يخترْهُ لنفسِه عالِمٌ من قبل ، هو : حراسةُ البساتين .

وضحكَ أبو بشر ، وشاركه أبُو نصر ضحكَه . كانا رجليْنَ متقاربين فى العمر ، أحدُهما أستاذ ، والآخر تلميذ . وقضيَا جانباً من الليل يَسْمُران ، وأبُو نصر يحدّث مُضِيفَه عن موطنِه ، وأبِيه ، وأهلِه ، وحياتِه فى « فاراب » ، ورِحْلاته فى العالمِ الإسلامى ، ومن لقِيَهم من العلماء .

إنى بك لسعيد

عثَر الفارَابى ، بمساعدةِ أستاذِه وصديقِه « أبى بشر » ، على بستانٍ على شاطىءِ نهر دجلة ، به بيتٌ صغيرٌ من غرفتيْن ، وحَوْش به سقِيفة للبغل وعملَ « الفارابى » فى البستان ناطورا ، يحرسُه فى الليل .

وصحبه أبو بشر للقاءِ عالمِ النحو والصرف « أبِى بكرٍ السّراج » ، وكان بدوْره يمارِسُ عمَل السُّروج للخيلِ وللبغالِ والحمير ، مثل كثيرينَ من العلماء فى هذا الزمان ، الذين يكسَبُون رزقَهم من الحِرَف ، ويحيَوْن بعقولِهم أحراراً ، غيرَ خاضعِين لأحدٍ من الناس .

وقرأ « الفارابى » على يدىْ العالِمِ « أبى بكر » مُعجم « العين » للخليل بن أحمد ، وكان أولَ معجمٍ وُضِعَ للغةٍ من لغاتِ الأرض . وقرأ عليه كتابَ « الكِتاب » لسيبويه فى

النحو ، وقرأ كتباً أخرى ، فى البلاغة ، والصّرْف . واستغرقَه درسُهما ، وإتقانُهما عامين من حياتِه فى بغداد ، لم ينقطِع فيهما عن دراسةِ « المنطقِ » و« الفلسفة » ، فى نفسِ الوقت ، على يدىْ : « أبى بشر متّى بنِ يونس » .

وبلغَ « أبو نصر » ، من إتقانِه للعربيةِ وعلومها ، حدًّا راحَ يضع به مصطلحاتٍ عربية ، تقابِلُ المصطلحاتِ اليونانية ، والفارسية ، لعلومِ المنطق والفلسفة ، والرياضِيات ، والموسيقى ، وهو لا يعرفُ من اليونانية أكثر مما تدلُّ عليه حُدُودُ التعريفات للمصطلحات اليونانية ، فيجدُ فى العربية ، من الاشتقاقات ، ما يؤدِّى هذه التعريفاتِ بمصطلحاتٍ عربية ، تُقابِل هذه المصطلحاتِ الفارسيةِ أو اليونانية .

وبلغ أبُو نصر حدًّا من العِلم بالمنطق ، والفلسفة ، صارَ يجيب به عن مسائلَ فى المنطقِ والفلسفة ، تُعْجِبُ أستاذَه « أبَا بشر » ، فيضحَكُ ، ويقول لهُ :

- إنى بكَ لسعِيد ، وكان لابُدّ أن تسوقَك الأيامُ إلىّ .

الرحيل إلى حرّان

وسَعى « أبو نصرٍ » للسّفر إلى « حَرّان » (فى جنوبِ

شرقِىّ تركيا الآن) ، وكانت « حَرّان » ، منذُ فجرِ الدولةِ العباسية ، قبلَ قرنٍ ونصفٍ من الزمان ، ما تزالُ عاصمةً من عواصِمِ الثقافةِ الإسلامية ، فى المنطقِ ، والفلسفةِ ، والطب ، وفى ترجمةِ المعارفِ اليونانيةِ إلى العربية . نقلاً عن الكتبِ اليونانية والسريانية . كانتْ غايته من السفر ، أن يلقَى عالِماً آخرَ بالمنِطق والفلسفة والطب فى « حَرّان » ، هو : « يُوحنا بن حِيلان » . وودّعَه أستاذَاه : « أبُو بشر » ، و« أبُو بكر » ، إلى حين .

ودخلَ « أبُو نصر » مدينةَ « حرّان » ، التى يتحدثُ فيها الناسُ بأربع لغات : العربيةُ لغةُ الإسلام ، واليونانيةُ لغةُ الإغريق وفلاسفةِ الإغريق ، واللاتينية لُغَةُ الرومان ، والسّريانية اللغةُ الأصلية لأهلِ « حَرّان » ، قبلَ أن تدخلَها لغةُ العرب ، ودينُ الإسلام . وكانتِ السُّريانيةُ واحدةً من اللغاتِ السامية ، مثل اللغاتِ العربيةِ والأمهرية والعِبرية . ولقيَهُ « يوحنا بن حيلان » خيرَ لقاء وقدمَ له ما لديْه من كتبٍ لينَسَخَها لنفسِه ، وما عندَه من معارف ، وطالت بينَهما نهاراتُ الحِوارَ والنقاش ، وفى الليالى ، وطَوالَ عامين ، قضاهُما « أبو نصر » فى « حران » ، كان « الفارَابى » حريصاً على العملِ كعادتِه ناطورا فى حراسة بستانٍ . ثم عاد إلى بغداد .

مهمّة علميّة

وجد « أبو نصر » عملَه ، وبيتَه الصغير فى البستان ، بانتظاره ، ودخلَ البيت ببغلتِه ، وسارعَ إلى لقاءِ صاحبيْه العالمين : « أبى بشر » ، و « أبى بكر » وزفّ إليه « أبو بشر » خبراً أخافَه وأسْعده .

كانت الترجماتُ الشتّى لكتبِ اليونانِ ، فى الفلسفةِ والمنطقِ خاصة ، متضاربة فى المقولات ، والشُروح ، والمصطلحات . ولقد وقَع اختيارُ القوّامين على كتب هذينِ

العِلمين فى بيتِ الحكمة ، على « أبى نصر » ليُزيلَ ما فِيهما من اضطراب بين الترجَمات ، ويضعَ مصطلحاتٍ عربية بدلاً من هذه المصطلحات اليونانية فى كتبِ المنطق والفلسفة المترجمة .

ورفض « أبو نصر » ، أن يجعل من مناضدِ بيتِ الحكمة ساحةً لعمله . صارَ يأخذُ الكتبَ معه إلى بيته الصغير ، ويعملُ ليلَه كلَّه ، ليلةً إثرَ ليلة . ولا أحدَ يعلَم : كم شهراً قضاه ، أوكم سنةً أنفقَها ، فى القيامِ بهذا الدوْرِ الشاق ، مع كُتُبٍ هى حصادُ عصرٍ بأكملِه من الترجَمات . لكنَّ « أبَا نصر » أدّى مهمتَه على خيرِ وجه ، وصارَ المختلِفون متفقِين ، لا يضيّعُون أوقاتَهم فيما عناهُ أرسطو أو أفلاطون بمصطلحٍ مَا . وأخذَ التلاميذُ من طلاب العلم يتوافدون على « أبى نصر » فى بيتِه الصغيرِ فى الليل ، وفى صحنِ المسجدِ الكبير فى النهار ، وكان أشهرُهم ، فيما بعْد ، تلميذُه عالِمُ المنطِق المشهور : « يحيى بن عدىّ » .

بلوغ الذّروة

وبلغ « أبو نصر » ذِروةَ نضجِه العلمى ، وقد قاربَ الستينَ من عمرِه ، وما يزَال قوىّ البنية ، صحيحَ العافية ،

قوىَّ النظر . فأخرَج نفسَه من مجالِ الدرس والتحصيل ، والشرْح ، والإضافة ، والتعْليق ، ووضع المصطلحات ، إلى مجالاتِ التأليفِ فى المنطقِ والفلسفةِ والموسيقى والرياضِيّات . وعلى معرفتِه الطِّبِّية بالطّب ، فلم يَشْغَل نفسه به ، طبيبا ، ولا عالِمَ طبّ يُؤَلِّف فيه .

فى المنطقِ ، كعَالم ، دَوّن الفارابى بحوثَه فى أجزاء ، كلّها تدورُ حولَ كتاب « الأرجانون » لأرسطو ، بالتعْليقِ تارة ، وبالتلخيص تارةً أخرى . وأغلبُ أجزاءِ هذه البحوث لا تزالُ مخطوطة ، فى أقسام المخطوطات ، بالكثيرِ من المكتباتِ العربيةِ والعالميةِ الكبرى .

وفى الفلسفةِ ، وكانت تشملُ علومَ الطبيعـة ، والرياضة ، والميتافيزيقا (ما وراء الطبيعـة) والأخلاق والسياسة ، ألّف « الفارابى » أكثرَ كتبَه . وأكثرُ هذا الكثير وصل إلى عصرنا ، وطبع ، وتُرجم إلى عديد من اللغات الحية .

كان الفارابى يكتبُ بأسلوبٍ دقيقٍ مركز ، لا تكرارَ فيه ولا ترادُف ، يُعطِى أغْزَر المعانِى فى جُمَلٍ مختصرة ، ويذكرُ لكلّ فكرةٍ ما يُقابلها ، ولا يطيلُ فى شرحِ المعروفِ من الأفكار ، ولا يتوقّف إلا عندَ الموضُوعات والقضايا الكُبرى ،

فلا يُضيِّعُ وقتَه ووقتَ العلماء فى موضوعاتٍ عادية . ويُعْ أشدّ العِناية ، بترتيبِ أفكاره ، فى ضوءِ منهجٍ شديدِ الاهتمامِ بالتحليل والتركيب ، والتفرِيع والإجمال . ملقيًا الضوءَ فى هذا كلّه على عرضِ المدارسِ الفلسفية وأسماءِ رؤُسائها ، ومصادِر تسميتها .

رفـع الحـرَج

وكانت غايةُ الفارابى من كتبِه الفلسفية أمرين هما : التوفيقُ فيما ما يبدُو من تناقُضَات بين فلسفةِ أرسطو من جهة ، وفلسفة أفلاطون من جهة أخرى . ففلسفة أرسطو تنصَبُّ على الموجوداتِ المادية ، وفلسفةُ أفلاطون تربِط بينَ هذه الموجودات وما يُسمّى بعالَم الصورة ، أوعالَم المثال . والتوفيقُ بين قضايَا الفلسفةِ ، وقضايَا الدين الإسلامى .

ورفعَ الفارابى بتوفيقه هذا بيْن الدين والفلسفة ، الحرج عن علماء الفلسفةِ والمنطق بين علماءِ العصرِ من رجالِ الدين . ولاءمت نزعةُ التوفيق هذه الفكرَ الإسلامى فى عصره ، فهى النزعةُ التى كانتْ سائدةً بين المذاهبِ الإسلامية وأئمتها . ولذلك وجدتْ محاولةُ الفارابى التوفيقية نجاحاً فى زمانه ، مثلَ النجاح الذى وجدَه المذهبُ الأشعرى

فى علمِ الكلام ، لأنّه وَفّقَ بنجاحٍ بين أصحابِ العقل وأصحابِ النقل ، ومثل النجاح الذى وجده بعْدُ المذهبُ الشافعى فى الفقْهِ الإسلامى ، لأنه انتهجَ طريقاً وسطاً بين المذهبِ الحنفى ، والمذهبِ المالكى ، والأول يُعْنى فى مقُولَاتِ الفقِه ، بالعقلِ والقياس ، والثانى يُعنى فى مقولاتِ الفقه ، بالحديث والسُّنة .

مـدن فاضـلة

كان الفارابى يرى أن المدَنَ البشريةَ نوعان ، مدنٌ فاضلة ، ومدن غير فاضلة .

والمدنُ الفاضِلة غايتُها تحقيقُ السعادة ، كغايةٍ قُصوى يشتاقُها الإنسان . فهِى أسمَى الخيرات جميعها ، ولا تكونُ السعادةُ إلا بممارسة الأعمالِ المحمودة ، عن إرادةٍ وفهم مُتصلين ، لتنميةِ خصالِ الخيرِ الموجودةِ فيه بالقوة ، لتصير مَلَكَةً راسِخة فيه بالفعل . فالممارسَة تُولِّد العادة ، خَيِّرة كانت هذه العادةُ أو شرِّيرة .

والفضيلةُ ، فى المُدن الفاضلة ، هى وَسَط بين حدَّين : الإفراطُ والتفريط . والعملُ الصالِح هو العملُ

المتوسِّط ، مثلما تتوسّط الشجاعةُ بين التهوُّرِ والجُبن ، والكرمُ بين البخلِ والتفريطِ .

ومهمةُ التعليم والتأدّب ، هى مهمة رئيسِ المدينة الفاضلة ، أو من ينيبه عنه ، لتحقيق هذه الغاية . فرئيسُ المدينة الفاضلة هو واضعُ النواميس ، القوانينُ والشرائع ، مستعيناً بأصحابِ الفِطرِ القويةِ ، فى الحصولِ على السعادة ، ليُرشد إليها من ليسَ له سبيلٌ إلى تعلمها بنفسه .

ورئيس المدينة الفاضلة ، يجب أن تجتمعَ فيه خِصال حميدة : قوة الشخصية ، وقوةُ البدن ، وقوة العقل ، وقوة النفس ، وقوة الخُلق ، ليصدُقَ ولا يكذب ، ويحبّ العدل ، ويكره الظلم ، وليشجُع ولا يخاف ، ويترفّعَ بنفسِه الكبيرة عن الصّغَارِ والدنيا من الأشياءِ والأمور . فمهمةُ رئيس المدينة الفاضلة خلقية ، مثلَما هى سياسية . وعليه أن يصبُغَ وزراءَه ومُساعديه ، المنفذِينَ لأوامرِه ، السياسيةِ ، بمهامه الأخلاقية ، فهُوَ وَهُمْ النّموذَجُ الذى يقلِّدُه أهلُ مدينته ، والمثالُ الذى يحتذُونه .

وإذا توزعت هذه القُوى فى رجال ، ولم تجتمعْ فى رجلٍ واحد ، فيجبُ أن يكونُوا جميعاً ، ومعاً ، الرؤساءَ

الأفاضل ، بشرطِ أن يكونُوا متلائمين ومتفقين ، وإلا تعرضتِ المدنُ للهلاك ، ولم تعدْ مدناً فاضلة .

مدن غير فاضلة

والمدنُ غيرُ الفاضلة ، تتمثلُ فى مدن جاهلة ، لا يعرِف أهلُها السّعادة ، ولا تخطُر لهمُ على بال ، فغايتُهم هى سلامةُ أبدانِهم ، والحصولُ على الثروةِ ، وعلى لذات الحواس . ومدائنها هى مدائِنُ الضروريات ، والخِسّة والشُّقْوة والتعصّبِ باسمِ الكرامة ، والقهرِ للغير ، وتكدِيس الثروة ، والحياةِ بالهوى بلا وازِعٍ ، ولا قدرةٍ على الكفِّ للنفْسِ ، أو النّهْى عن المعصِية ، والتمتعِ بلذات الحواس .

وأسوأُ هذه المدائِن حالاً هى المدنُ الضّالة ، التى يدعى رئيسُها أنه مُوحى إليه ، فلا يعملُ بالشّورى ، ولا يجمُع حولَه سَوى بطانَةِ السوء ، فيصرِفَ أهل مُدنه عن العقائدِ الصحيحة فى الدّنيا والآخرة ، أخلاقًا وأعمالا ، وعن السعى إلى مسرّاتِ العقل والروح .

فى هذا كله كتب « الفارابى » ، فى بغداد ، كتابيْه : « التنبيه على سبيل السعادة » ، و« آراء أهل المدينة

الفاضلة » ، وكأنه كان يقول رأيه فى مدائن عِصره ، ودولِ أهلِ زمانه ، ويرثِى تبدّل أحوالِها من القوةِ إلى الضّعف ، ومن الكمالِ إلى النقْص ، دونَ أن يواجِه بالقولِ المباشِر أهلَ السلطان ، حيثُما كانُوا فى مدائِن الإسلام ، وكأنّه كان يخاطِبُ أهلَ الصفْوة من المفكرِين ، وأصحاب المثُل ، الساعِين إلى الخيرِ والكمال .

كتاب الموسيقى الكبير

فى بغدادَ كتب « الفارابى » نحوا من سبعين كتابا ورسالة ، فريدةَ الموضوعات ، ودون تكرار لموضوعٍ ، أو تغييرٍ لعنوان كتاب ، بيَن حينٍ وحين . ولم يشتِهر من بينِها ، مما وصل إلينا ، سوى واحدٍ وعشرين مُصَنَّفاً ، بين كتابٍ ورسالة . وتقفُ فى ذِروتها كتبه : « آراءُ أهلِ المدينةِ الفاضلة » ، و« السّياساتُ المدنية » ، و« الموسيقى الكبير » ، و« إحصاءُ العلوم » ، ورسالتُه فى : « معانى العقل » .

وقد ألّف الفارابى كتابَه « الموسيقى الكبير » ، أو كتابَ « صناعة الموسيقى » وأهداه للوزير « أبى جعفر محمد ابن القاسم الكرخى » الذى أحبّه روحا وطِباعاً ، وجاءَ إتمامه

لِلكتاب ، وإهداؤه للوزيرِ ، بعدَ موته ، وكان الكرْخى صاحبَ مناصِبَ عديدة تقلب بينها فى رئاسات الدواوين ، وانتهى به المطافُ إلى الوفاة ، وهو فى فقرٍ شديد ، بمنزلِه فى بغداد ، وفى نفس العام فارق الفارابى بغداد ، وأهلَ بغداد .

فى كتاب « الموسيقى الكبير » كتب الفارابى مدخلاً إلى صناعة الموسيقى ، وفصولاً فى هذه الصناعة ، تحدّث فيها عنْ أصولِها ، وآلاتِها المشهُورة ، وأصنافِ الألحان . وكانَ الفارابى يعتبرُ علمَ الموسيقى جُزْءاً من علم التعاليمِ ، ويعرّفُه بأنّهُ العلمُ الذى تُعرف به صناعةُ الألحان .

وقد قسّم هذا العلم إلى علمين : علمُ الموسيقى النظرى ، وأفردَ له خمسةَ أجزاء ، تحدثَ فيها عن أصولِ الصناعة ، وعلاقَةِ هذهِ الأصولِ بأصنافِ الآلات ، وعن أصنافِ الإيقاعاتِ الطبيعية التى هى أوزانُ النغم ، وعن تأليفِ الجملة الموسيقية ، وعن تأليفِ الألحانِ الكاملة .

وعلمُ الموسيقى العملية ، وفيه تحدّثَ الفارابى عن الإيقاعاتِ ، وعن النقْرةِ مضافةً إلى الإيقاع . وما تزالَ نُسَخُ المخطوطاتِ لهذَا الكتاب موجودةً بمكتبات : ليدن ، وميلانو ، والأسكوريال ، وبيروت . وقد طبع هذا الكتاب أخيرا فى القاهرة .

أول موسوعة علمية

ولعلَ أهمّ كتابٍ للفارابى ، خرجَ به من كلّ حصادِ مؤلفاتِه من الكتبِ والرسائل ، هوكتابه « إحصاء العلوم » الذى حققه وأصدَره بالقاهرة الدكتورُ عثمان أمين . ففيهِ تجمّعت كلّ معارفِ الفارابى الموسوعية فى شتّى العلوم ، وجاءَ لمؤلفاتِه بمثابةِ الدرّةَ فى التاج .

و « إحصاءُ العلوم » ، هو أولُ محاولة موسُوعيّة علمية ، فى تاريخِ الفكرِ الإسلامى ، بل فى تاريخ الفكرِ البشرِىّ كله ، فقد أحصَى فيه العلومَ المشهورة فى زمانِه علما عِلما ، وبيّن فى كلّ منها ما يشتملُ عليه من أجزاءٍ وتفريعات ، وجعلَه فى خمسة فصول ، ففصلٌ عن علمِ اللّسان وأجزائِه ، وفصلٌ عن عِلمِ المنطق وأجزائِه ، وفصلٌ عن علومِ التّعاليم ، وفصلٌ عن العِلم الطبيعىِ وأجزائِه . والفصلُ الأخير ، كان عن العلم المدنىّ وأجزائِه ، وعن علمِ الفقه ، وعلم الكلام .

وفى حديثه عن كل علم ، قدم الفارابى فكرةً واضحةً عنه ، وعن فوائِده وغاياتِه ومزاياه .

فعلمُ اللسان غايتُه هى حِفظُ الألفاظِ الدالّة عند أمة ما ، والعلمُ بما يدلّ عليهِ شيءُ منها ، ويتمثلّ هذا العِلم فى العلم بقوانينِ تلك الألفاظ معجماً ونحواً وصرفا . وعلمُ المنطق غايتُه معرفة القوانينِ التى تقوّمُ العقل ، وعلاقتُه وثيقةٌ بعلومِ اللغَة ، فموضوعاتُه هى القوانين لها . لمدلولات الألفاظ ، وللألفاظ التى تُدلّ على مدلُولاتها .

وعلمُ التعاليم يشملُ علومَ : العددُ ، والهندسةُ ، والبَصريّات ، والنجومُ ، والموسيقى ، والأثقالُ ، والحِيل (الميكانيكا) .

والعلم الطبيعى يشملُ علوم : السماعُ الطبيعى ، والسماءُ والعالم ، والكونُ والفساد ، والآثارُ العلوية ، والمعادن ، والنبات ، والحيوانُ ، والنفس .

فيم البقاء فى بغداد ؟

مكث الفارابى فى بغداد عشرين سنة ، وآنَ له أن يفارقَها فقدْ لقِىَ صديقَه « الكرخى » وجهَ ربهِ قبلَ عام ، وكان نفوذُ الأتراكِ قد انتهى من بغدادَ قبلَ ستّ سنوات ليبدأ عصرُ الأمراء فى بغدادَ نفسِها ، مثلما بدأَ فى أقاليم الدولةِ العباسية الواسعةِ الأرجاء . ففى حلب والموْصِل كانَ الحمدانيّون ،

وفى مصرَ كان الإخشِيديّون ، وفى تُونس ، كان الفاطميّون ، وفى المغرب كان الأدَراسة . وفى العالمِ الإسلامِى كان ثلاثةُ خلفاء ، أحدُهم فى قُرْطبة بالأندلس هو عبدُ الرحمن الناصر ، والثانِى فى المهديّة بتونس هو مؤسسُ الدولة الفاطمية ، والثالثُ فى بغداد ، وهو الخليفة المتّقى ، الذى لم يتورّع « تُوزُون » القائد عن قتله .

ففيم البقاء فى بغداد ، وآلُ بويه سوفَ يتقدّمُون ، بعدَ بضعِ سنواتٍ لا تزيد ، ليحكمُوا بغَداد ، قادمِين من بلادِ الفرس ؟ وفيمَ البقاء فى بغدادَ ، والعواصمُ الثقافيةُ الإسلاميةُ الأخرَى فى ظلالِ الأمراءِ المنشقين ، أفضلُ حالاً ، اجتماعاً وسياسةً ، وثقافةً وعمرانًا ، مما آلتْ إليه حالُ بغداد ؟ وفيمَ البقاءُفى بغداد ، وهو ، فى السبعينَ من عمره ما يزالُ قادراً على العملِ ، ناطوراً يحرسُ البساتين ، وطالبَ علم يقرأ الكتب ، وعالِماً قد تَعن لهُ مرةً أخرى الكتابةُ والتأليف ؟!

واختارَ الفارابى أن يحط رِحَاله فى حلب ، بديار الشام .

لقاء عجيب

دخلَ الفارابى مدينة حلب (فى سورية الآن) ، وكان

يعرِف أنْ أميرَها سيفَ الدولةِ الحمْدَانِىّ ، يحبُّ العلم وَالعلماء ، ويحيطُ نفسَه بالشعراءِ والكتاب والفنانينَ معَ العلماء ، وما تزالُ به بقيةٌ من رؤساءِ المدنِ الفاضلة ، وقد كفَى الدولَ المنشَقّة كلّها ، والخلافةَ فى بغداد ، عبءَ الدفاعِ عن تُخُوم الشّام ، ضدّ الدولةِ الرومانية البيزَنطِية ، التى سيطرتْ عليها روحُ الغلبة والقهْر ، ودبّ فيها الفسادُ واختلافُ الآراء .

وآثر الفارابى ، وهوعَلم بيْنَ العلماء ، ألاّ يقيمَ فى حلب ، دُونَ أنْ يلتقِىَ بأميرِ حلب سيفِ الدولةِ الحمْدَانِىّ ، حتى لا يظُن ببعْدِه عنهُ الظّنون ، وحتى يُغلِق دونَه أبوابَ السعايات والوِشَايات . وكان لقاؤه لسيف الدولة لقاءً فريدا ، لم يلْقَ الفارَابِى بمثلِه أحداً من قبل ، من أهلِ السلطان ، فلم يسْعَ من قبلُ للقاءِ أحدٍ من أهل السلطان .

دخلَ الفارابى قصرَ سيفِ الدولةِ بحلَب ، فى زيِّه التركِىّ المعتاد ، وبدَا لمهابتِه عالماً ، فلم يعترِض طريقه أحَد ، مُوقنين بأنهُ عالِمٌ من العلماء الذين يفدُون أبداً على سيفِ الدولة ، من سائِر الأنحاء .

وجَد « الفارابى » الأميرَ سيفَ الدولة جالساً فى الصّدارة ، على أريكةٍ عالية ، فى الإيوان ، يحيطُ به العلماءُ على الجانبين . ومشَى الفارابى نحو الأميرِ ثابتَ الخَطْو ،

فدهِشَ سيفُ الدولة ودعَاه للجلوس وهُوَ يسير على البُساط نحوَه ، فقالَ لهُ الفارابى ، وهو ما يزالُ يواصِلُ سيره :

ـ حيثُ أنَا أم حيثُ أنْت ؟

فصاحَ به سيفُ الدولة :

ـ حيثُ أنت .

ولم يبالِ الفارابى بما سمِع ، وواصلَ خَطْوه حتى وصَلَ إلى سيفِ الدولة فى جِلسته . وهمّ به الحراسُ الرابضون وراءَ الأستار ، فأشارَ إليهم سيفُ الدولة ، فتوقّفُوا . وبلغَ الفارابى أريكةَ سيفِ الدولة ، فجلسَ عليها بجانبِه . وعندئذٍ ابتسَم سيفُ الدولة ، وقالَ لمن حولَه من العلماءِ الذين علت وجوههم آمارات الاستنكار :

ـ ما أظنّ هذا الشيخ إلا عالما ، ولقد أساءَ الأدب مع الأمراء ، ولكم أن تختبِرُوا معارفه . فإذا رَسَب فى الامتحان ، فلسوْف أدفَعُ بِهِ إلى الحراسِ ليقتلوه .

وأشارَ سيف الدولة إلى رئيسِ الحراس ، فأقبل مسرعا وحدَّثَه سيفُ الدولة ، بلسانٍ فارسى ، يخبرُه بقتلِ الرجلِ .

ودهِش سيفُ الدولة ، حين وجدَ الشيخَ ، يقولُ بنفسِ اللسانِ لقائدِ الحرس :

ـ لكَ عندئذٍ أن تقتلَنى فى الحال .

الامتحـــان

وتوالَتْ أسئلةُ العلماءِ للفارابى فى الفقْه ، والحديث ، والتفسير ، وعلم الكلم ، وعلوم اللغة ، وزادُوا فدخلُوا به فى بِحَارِ المنطقِ والفلسفةِ والرياضيّات ، ولم يتوقّفِ الفارابِى عن جوابِ ما يسألُونه عنه ، كان يجيبُ بيُسْر وبساطةٍ وعُمْق ، ويضربُ الشواهدَ والأمثال ، وراحَ العلماءُ يسجلُون إجاباته ويجمعونَها له ، فيما بعد ، فى كتاب ، تحتَ عنوان : « رِسالةٌ فى جوابِ مسَائل سُئِل عنْها الفارابى » .

وآثَرَ الأميرُ سيف الدولة ، أن ينفرِدَ بالشيخِ المجهول الاسمِ إلى لحظتِه ، فأشارَ للحاضرين فانصرفُوا ، وخلاَ المجلسُ ، واستبقى الأميرَ معهُ ضيفَه ، وحدّثَه ، وعرّفَه مَنْ هو ، فنهضَ الأميرُ وعانقَه ، وقال له :

ـ هل لكَ أن تأكُلَ معى ؟

وأبى الفارابىُ الطعامَ والشراب . فقال له الأمير :

ـ فهل تسمع ؟

فقال الفارابى :

ـ نعم .

وأشارَ الأمير ، فخرجَ العازفُون والعازفات ، والمغنُّون

والمغنيات ، من وراء الأستار ، وأخذوا يعزفون الألحان ، ويغنّون الأُغْنيات ، وكلما سمِعَ الفارابى عَزفا ، دعَا صاحِبَهُ إليه ، وبيّن له نواحِىَ النقص فى عزفه . ودهِشَ سيفُ الدولة ، وسألَه :

- أتحسِنُ الموسيقى أيضا أيّها الفيلسوف ؟

فأخرجَ الفارابى من جوفِ عَباءتِهِ كيساً من القماش ، بهِ ألواحٌ ركّبها ، وأوتارٌ شدّها ، وكانتْ آلةً موسيقية لا عهدَ للعازفِين من قبل بها ، وقالَ الفارابى : إنها « آلة القانون » ، وإنها من وضعه ، وأخذَ يعزف عليها ألحانًا غريبة ، بعضُها أسالَ الدمعَ من العيُون ، وبعضُها جعل الأرواح تحلّق فى خِفة ، وبعضُها جعلَهم يبتسِمون فى سرور .

وعادَ الأمير يخلُو بضيفه . عرَض عليه مالاً فأبى . وراتباً شهريا فأبى ، وقال للأمير :

- ما جئتُ إليك إلا لأتقِىَ شرورَ أهلِ الوشاية والكيدِ عندَك ، وما كانَ لى أن أدخُل بلدَ أميرِ فارس ، هو بقيةٌ عندِى من السلَفِ الأوّل ، دُونَ أن أسعَى إلى لقائِه ، وأستأذِنَه فى المُقَام ببلده ، ما طابتْ لى الإقامة وامتدّ بى العُمْر . وقد ووجدْتُ لنفسِى عملاً لا أوثِرُ عليه عملا سواه ، ولا أحبُّ أن أُرْزق أنَا وبغلتى إلا من أجرِه .

وضحكَ الأمير فى إعجابٍ بالشيخِ العالم ، وألجمتْه الدهشَة ، حين قال له الفارابى : إنه يعمل ناطورا ، يحرسُ بستاناً فى غَوْطة من غياطِ حلب .

فى جامع عمرو

فى حلب ، عاش أبو نصر الفارابى ، عشر سنوات ، حارسا فى بستان . وبين حينٍ وآخر ، كان يزُور دمشق ، ويلْقَى من بها من العلماء ، ويُصلّى فى جامعِها الأموى . ثم يعُودُ إلى حَلَب .

وتاقتْ نفسُ الفارابِى لرؤيةِ مصر ، ولم تكنْ مدينةُ القاهرة قد أنشئت بعد ، كامتدادٍ لمدائنِ الفسطاط ، والقطائع ، والعسْكر . كانت مصرُ فى حكمِ الإخشيديّين المنافسين أبداً لسيفِ الدوْلة فى تملُّكِ الشّام . ونزلَ الفارابى بالفُسطاط ، وصلّى فى جامِعِ عمروٍ ، ولقِىَ عُلماءَ مصر فى عاصِمةِ الإخشيد . وأقَامَ ما حَلاَ لهُ المقام . ثم عادَ إلى دمشق ، فحلَب ، يحيا نهارَه فى بستانٍ هو حارسُه ، مع أصواتِ الطيور ، وخَريرِ نهرِ بردَى ، وظلالِ الشمس وأضوائِها بين الأشجار ، وأريجِ الزهُور والثمار ، ويسهرُ ليلَه إلى الفجر ، مع الكتب ، يقرأ جديدَها ، ويعيدُ قراءَة أثيرها

عندَه ، ويهذّب مؤلفاتِه التى كتبها فى بغداد .

الزوْرة الأخيرة

وجاءَ يوم ، وقد قارب أبو نصر من العمر ثمانين سنة ، دعاهُ فيه الأميرُ سيفُ الدولة لزيارةِ دِمشق معه ، وحملَه معه على خيرِ مركب ، بعيرٍ يرْقُد فى هَوْدجِه إن شاءَ ، ويجلسُ إن أحبّ الجلوس ، فقد تقدمَتْ به السنّ ، ووهَن منْه العظم .

وفى دمشق طافَ أبو نصر مع الأميرِ سيف الدولة بأرجاءِ غَوْطتها التى تحيطُ بها من الجنوب مثل هلالٍ أخضر . وجلسَا معاً ، وأحسّ أبُو نصر بهبوطِ القوى ، فدعَا الأميرُ إليه بطبيبِه المرافق ، لكن الطبيبَ إذ بلغَ الفارابىَّ الممددَ على حشيشٍ أخضر ، وجدَ روحه قد فاضتْ إلى بارئها .

الجسد النبيل

وحزن الأميرُ سيف الدولة على صديقهِ الشيخ ، بقدرِ ما سعِد بصحبته ، وإقامته فى بلادهِ عشرَ سنوات ، وأمرَ فحُمِل الجسدُ النبيل المسجّى ، لشيخٍ عاش زاهداً وقانعاً ، إلى الجامعِ الأموى ، وصلّى عليه الأميرِ بنفسه صلاة الوداع .

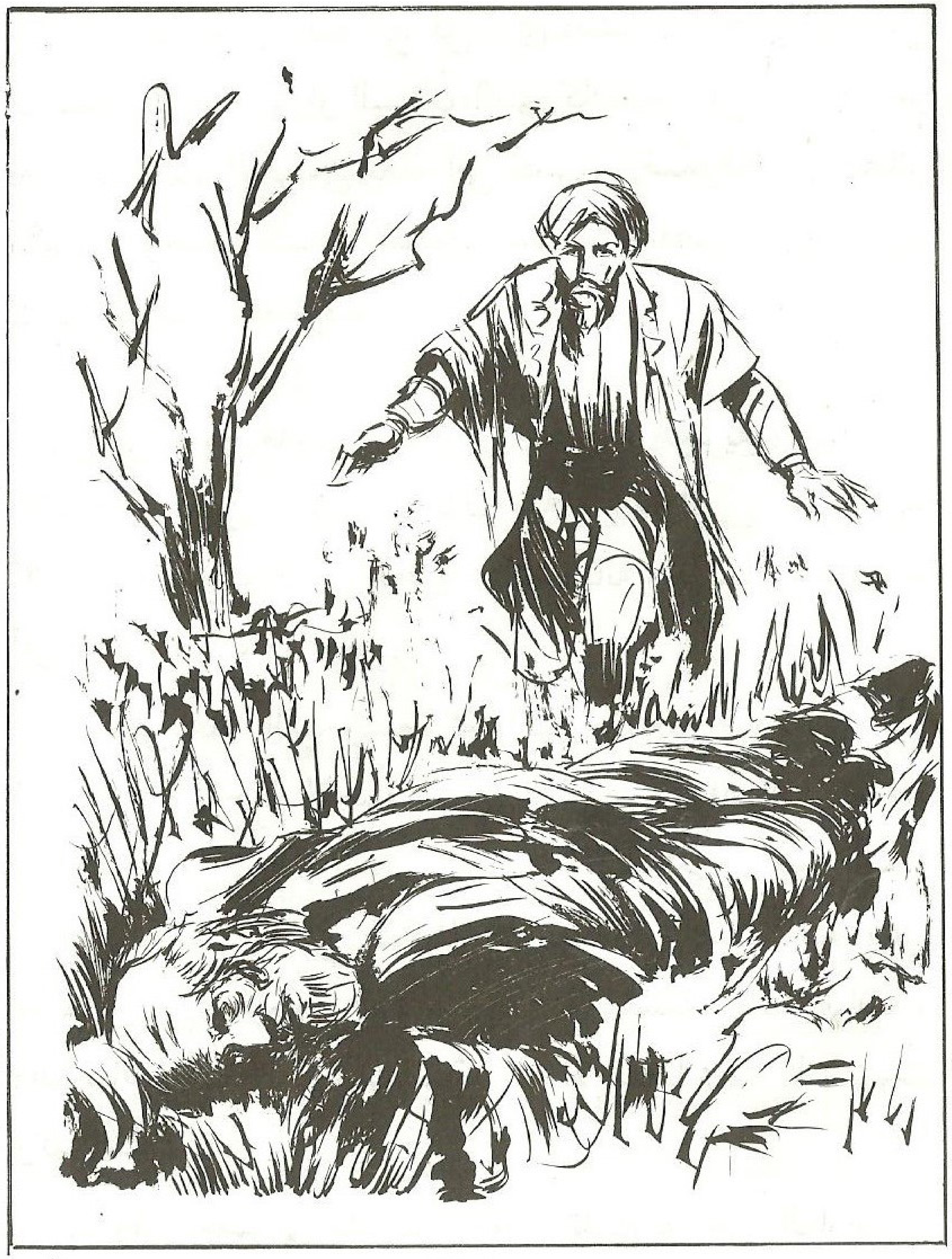

وُورِىَ جسدُ الفارابى فى ثَرَى دِمشق ، وعادَ الأمير إلى عاصمتِه بدونِه ، وزارَ البستانَ الذى كانَ يحيا فى بيتٍ صغيرٍ به ، وصحبَ الحُراس بغلةَ أبِى نصر ، وضمّوها إلى حظائِرِ الأميرِ . وحملُوا كتبَه ، فضمّها قيِّمُ مكتبة قصرِ الأمير ، إلى كتبِ المكتبة العامرة .

* * *

فى سنة مائتين وتِسْعٍ وخمْسِينَ هجرية ، ثمانمائةٍ واثنتين وسبعين ميلادية ، كانَ ميلادُ الفارابى . وفى سنةِ ثلاثمائة وتسعٍ وثلاثين هجرية ، تسعمائة وخمسينَ ميلادية ، لقِىَ الفارابى وجْهَ ربه .

وفى عامِ ألفٍ وتسعمائةٍ واثنين وسبعين ميلادية ، أُقِيمَ فى بغدادَ مِهرجانٌ لإحياءِ ذكرَى الفارابى ، وفدَ إليه العلماءُ والفلاسفة من أرجاءِ العالمِ العربِى والإسْلامى ، ومن أنحاءِ القارّات الست ، فى كوكبنا الأرضِىّ ، وألقيت عنْه وعن مؤلفاتِه فى علومِ الموسيقى ، والفلسفة والطبيعياتِ ، والرياضياتِ ، والسياسةِ ، والاجتماع ، البحوثُ والدراسات .

وفى مصر ، نشرت بحوث تذكارية عن الفارابى ، ومؤلفات الفارابى .

وحيثُما كانتْ للثقافةِ وللفلسفة مواطنُ وعلماء ، كانتْ ذكرَى الفارابى العطِرة عبْرَ العصور ، والتى تركتْ بصماتِها على ثقافةِ العربِ ، والغرْب ، وأنجبت من بعدِها ، وبفضلِها فيلسوفين عظيمين قدمتهمُا للعالم ، هما : ابن سينا ، وابن رشد . وكان الفارَابى ، هو معلمهُما الأول بمصنفَاتِه ، ورائدَ أولِ موسوعةٍ علميةٍ فى الدنيا ، ومؤلفَ أضخمِ كتابٍ فى الموسيقى بالعصور الوسطى ، وصاحبَ مدينةٍ فاضلة ، تتجاوزُ مدينةَ أفلاطُون الفاضلة ، بقيم مجتمعٍ عربىٍ مسلم .

وطَوالَ عصرِ النهضةِ الأوربيةِ الحديثة ، دَرَج المستشرقُون على إطلاقِ لقب : المعلّمُ الثانى ، على « أبِى نصر محمدٍ بنِ طَرْخان » الفارابى ، الفارسِىّ الأصْل ، التركىّ الموطن ، العربىّ الثقافة والدين ، وحيّا ذكراه المستشرق « دى فو » ، لأنّ لفكره وثباتُ كوثباتِ الفنان ، وحياه المستشرق « ماسينيون » ، لأنّه كانَ أكثرَ فلاسفةِ الإسلام فهماً للفلسفة ، وللعلومِ القديمة ، وحياه العالمُ « روجر بيكون » لأنّ مؤلفاتِه كانت نبراساً لحكماءِ الشرْق والغرب ، وسراجاً وهّاجا يستضيئُون بنورِه ، ويسيرُون على هداه .

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٧ / ٨٠٥٩

مطابع الأهرام التجارية القاهرة - مصر

علماء
العرب
٨

الفارابى

أبو الفلسفة الإسلامية ، والمعلم الثانى بعد أرسطو . عاش فى القرن الميلادى العاشر ، وجاب مدائن عصره ، فى وسط آسيا ، والعراق والشام ، ومصر ، وترك وراءه للدنيا أضخم كتاب فى الموسيقى ، وأول موسوعة للعلوم ، ووفّق بين فلاسفة اليونان ، وبين الفلسفة والدين ، ودعا إلى حياة سعيدة فى مدينة فاضلة . وعاش عمره حارسًا للبساتين . إنها قصة تثير الفخار ، يقرؤها الصغار والكبار .

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر